ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:08، العدد: 01(2023) ص: 16 / 25

معالم الحداثة في تجربة " محمد بنيس " النقدية كتاب " حداثة السؤال " أنموذجا"

The features of modernity in the critical experience of "Mohamed Bennis", the book "The Modernity of the Question" as a model

مبرك حسين*
جامعة محمد بوضياف المسيلة
hocine.mebrak@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال: 2022/04/20
تاريخ القبول: 2022/11/20
تاريخ النشر : 2023/03/26

الكلمات المفتاحية:
- ✓ **حداثة:**
- ✓ **تجديد:**
- ✓ **خطاب نقدي، سؤال:**

الملخص:

يعتبر مصطلح الحداثة من المصطلحات المستعصية الدلالة والتحديد، بالنظر لما يشوبه من غموض،إذ اختلفت مفاهيمه من مجال إلى آخر، وصعب الإمساك بحدوده عند النقاد الغربيين والعرب على حد سواء، فالحداثة لم تبق حبيسة الثقافة الغربية بحكم منشئها، بل ذاعت وشاعت وراجت في بيئات مختلفة أهمها البيئة العربية، من خلال الأدباء والمستشرقين، تحت مايسمى بالتجديد والتحديث، من هؤلاء النقاد: محمد بنيس" الذي أعطى اهتماما كبيرا لقضية الحداثة العربية في الخطاب النقدي، محاولا إبراز رؤيته النقدية ومفهومه لها، وبيان موقفه من الحداثة العربية، من خلال كتابه: حداثة السؤال.

Article info

Received
20/04/2022
Accepted
20/11/2022

Keywords:
- ✓ *Modernity:*
- ✓ *Renewal:*
- ✓ *critical discourse, question:*

Abstract :

The term "modernity" is one of the intractable terms in terms of meaning and definition, given its ambiguity, as its concepts differed from one field to another, and the difficulty of grasping its limits for Western and Arab critics alike. Modernity did not remain confined to Western culture by virtue of its origin. Various environments, the most important of which is the Arab environment, through writers and orientalists, under the so-called renewal and modernization, among these critics: Muhammad Bennis, who gave great attention to the issue of Arab modernity in critical discourse, trying to highlight his critical vision and concept of it, and to clarify his position on Arab modernity, through his book The novelty of the question.

*د.حسين مبرك

1. مقدمة

استهل "محمد بنيس" كتابه "حداثة السؤال" بتعريف الحداثة قائلا: " إن الحداثة مركز خفي تارة وتكون صريحة تارة أخرى، أي أن معالم الحداثة تكون ظاهرة للعيان وتارة غامضة، فلا يمكن لها أن تكون دائما واضحة، وليست دائما غامضة يشوبها اللبس فهي تتأرجح بين الغموض والوضوح." (محمد بنيس،1988. ص:7) ، وقد انعكست آثار هذه الحداثة على الأدب، حداثة باتت تبحث عن الجديد في كل المجالات، ومن ثم فإن العنوان " حداثة السؤال" يعني البحث عن الجديد، ومحاولة الاكتشاف، لقد أضحت الحداثة عنده ضرورة ملحة، وحتمية لا مناص منها، بوصفها حقيقة تقوم على السؤال عن كل شيء، ومحاولة استجلاء الجديد في كل شيء، وهذا التساؤل يظل مطروحا وقائما لانهاية له، من خلال قوله:" ونكتفي بالاقتراب من هذا السّرّي العلني الذي يُسيّجُنا، الذي نخشاه صبورين قانعين، وللطيعين عذابهم أيضا، هو الاقتراب ممكن إذا ونحن نعلم أن المعاني يكاد المحو يلغيها، تتجاوب مهما تجافت"(محمد بنيس، 1988.ص:7) ، بل إنّ "محمد بنيس" يرفض الجدل حول حقيقة الحداثة وماهيتها، ويأبى مساءلتها، ذلك أنّ التّوجّه الحداثي في الأدب أمسى قناعة راسخة متأصلة، وضرورة لا تقبل المزايدات، من خلال قوله: " تبتدئ مساءلة الحداثة ضربا من العدوان، المزايدات، النباهة المريضة، أو ما شئت مما سمعتَ وقرأتَ "(محمد بنيس،1988. ص:7).

2.ماهية الحداثة في خطاب محمد بنيس النقدي

إنّ الحداثة وفق هذا التصور مبنية على أساس السؤال، والسؤال هو لبُّ كلّ ظاهرة أو قضية أو مشكلة، إنها السّؤال الدّائم والمستمر الذي يستنطق ويستكنه حتىّ الأشياء التي صارت عندنا من البديهيات، ومن ثمّ فالحداثة سؤالٌ ملّحٌ يراودنا كلّ حين وإزاء كل أمر، إنّها :"سؤال مرتفعٌ أو هاويةٌ، مغامرةٌ تُصاحبُ التّشظّي، رحمٌ تتكوّن فيه الأخرى، هذا الذي به نكتب، نتعلّم كيف تكون الطرق، وكيف ينشقّ المسار.."(محمد بنيس،1988. ص: 8). وفي هذا السّياق عمد "محمد بنيس" من خلال كتابه هذا إلى توجيه نقد لاذع إلى الشعر العربي ، مبيّنا أنه عجز عبر تاريخه الطويل عن امتلاك الفاعلية والإبداع، تلك الفاعلية التي من شأنها أن تضفي على الشعر جمالا ومتعة كتابة وقراءة، حيث يقول: " لم يستطع الشعر المغربي المكتوب باللغة العربية الفصحى، طوال تاريخه أن يمتلك فاعلية الإبداع، أي القدرة على تركيب نص مغاير يخترق الجاهز المغلق المستبد، إلا في حدود مساحة مغفلة إلى الآن، تمّتْ في زمن مختصر، ممّا عرّض غيرها، وهو الأغلب السائد، للمحو الدائم، لتعطيل الإنتاج. وهاهو الآن مُبعدٌ عن القراءة، منسيٌّ بين رفوف بعض المكتبات العامّة والخاصّة.

وقد تحوّلَ إلى مادّة متحفية."(محمد بنيس،1988. ص:11)، ومثلُ هذا الشّعر الذي لايُوفّر المتعة للقارئ، ولايتوفّر على فاعلية الإبداع، قد تحوّل إلى شبه وثائق تساعد على تجلية غوامض مرحلة من المراحل، ويستثيرها الدّارسون في أحسن الأحوال ليس من أجل القراءة والمتعة أو الوقوف على ظروف ومناسبات وملابسات معيّنة، أو عند بعض الدّارسين، قد تحوّل إلى " سبب للكسب يقف عند رغبته ملء الصفحات البيضاء "(محمد بنيس،1988. ص: 11)، ومنه فإنّ الحداثة في الكتابة هي قبل كلّ شيء كتابة جديدة مغايرة، واختراق للجاهز المغلق ، مشيرا إلى أن الشعر المغربي يفتقر إلى هذه الخاصية، واتّسم بالسّكون والنّمذجة والنّمطية، يقول: "بيننا وبين الشّعر غربةٌ متجذّرة، لأنّه لايتماشى والطّموح الذّي يسكن حبل الحداثة في الإبداع والثّقافة. يقول "محمد بنّيس" عن هذا النوع من الشّعر: " هو غربة متجذّرة تقوم بيننا وبينه، يختار القناعة والرّضى، ونختار الغيّ والعصيان، يستكين للنّمطية والاجترار، ونقتحم المفاجئ، و المعيش والمنسيّ، يستهدي بالذّاكرة، ونصدّع الذّاكرة بالحُلم والتّجربة والممارسة "(محمد بنيس،1988. ص: 12) .

إنّها ثورة يشنّها "محمد بنيس" على الكتابة الأدبية التي تعيد إنتاج القديم وتجتر الماضي وتلوكه، وتتقيّد بشروطه ومقاييسه ومعاييره، لا إبداع فيه ولا تجديد، كلّه ترديدٌ، في حين تعني الحداثة التّجاوز والخرق الدّائم لأصول وقواعد السلطة الأدبية والمناداة بالإبداع، واطّراح كلّ جاهز، فنراه يهاجم هذا الشعر المحنّط الجامد، قائلا: " هذا الشّعر المقدّس في الكتب والمقرّرات الرّسمية ينكفئ على موته الدّائم، يختلي ببرودته وتكلّسه، لا سؤال لديه ولا جواب، لا حنين ولا كشف ولا مغامرة، ركامٌ من البلادة والعفن، صكوكُ الإدانة، هذه وظيفته، محقٌ، تكريسٌ، قهرٌ، ونفايةٌ، هل نسمّيه بعد كلّ هذا شعرا؟ "(محمد بنيس،1988. ص: 12)، إن هذا اللّون من الشعر هو في تصوره نفايات مرمية على رفوف المكتبات، ولا يستحق أن يسمّى شعرا، ومن ثمّ وجب اطّراحه والتخلّص منه.

1.2الحداثةُ رديفُ التّحرر:

لقد ربط "محمد بنيس "ما طرأ على الشعر العربي من تحولات وتغيّرات بحركات التّحرر الوطني، وما واكب ذلك من تطورات على المستوى الاجتماعي والثقافي والفكري بصفة عامّة، حيثُ برزت معالمُ الحداثة وتفجّر بنية الشعر العربي التقليدي، وبرزت بنيةٌ جديدة مضادّة لما كان سائدا وذائعا وسائرا ومتداولا، وبالرغم من محاولات التخلص من الموروث والإتيان بشيء جديد، إلا أنّ الكثير من الشعراء ظلوا مرتبطين بالقديم وأصوله، وربما يعود ذلك حسب"بنيس" إلى حالات الانقطاع وغياب المساءلة والتساؤل والبحث عن المغاير والمتميّز، وهو ما أدّى إلى حالة من الركود والجمود والموات، حيث يقول: " خضع الوعيُ الشّعري للتّطور، وتأثّر السّابق باللاّحق من ناحية ثانية، وغياب مبادرة التّساؤل والتّأسيس من ناحية أخرى، كلّها ألغت فاعلية البحث في ماهية الشّعر وفاعلية المشاركة في تثوير الشعر المغربي .."(محمد بنيس،1988. ص: 14).

لقد اهتم العديد من النقاد الغربيين بهذا المفهوم حيث إنّ من مدلولاته عند الغرب أنها تنشد الجديد دائما، وأنها كمصطلح ظهر في النقد، وشمل الفن والأدب.ومنه فهي مرتبطة بالتغير والتجديد وإحداث تغيرات فيها إلا أن هذا لا يمنع من كون الحداثة ليست مجرد تغير وتتابع أي أنها لا ترتبط بالجدة بالضرورة، لأنها اختيار لمنتجات العقل في المجالات العلمية والتكنولوجية، والملاحظ هنا أنها لم ترتبط بمجرد التغيير والتتابع فقط، بل ارتبطت بالتطورات الحاصلة في جميع الحقول المعرفية الإنسانية وما تولد عنها من تطورات في المجالين العلمي والتكنولوجي .

والواضح أنّ أغلب الحداثيين ربطوها بالجدة والإتيان بما هو مختلف. إنها انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان إلى السيطرة عليه، بحيث تتولد أشياء جديدة لم يسبق لها أن كانت؛ فهي عبارة عن صيرورة من الحوادث لا يستطيع الفرد التحكم فيها، وبذلك فهو دائما يطمح للجديد دون أن يلتفت للوراء، فالحداثةُ كما يراها الغربيون "هي أن نعرف ما ينبغي تجنب العودة إليه."(رولان بارت، 1993. ص:66).

وما من شكّ أنها تطمح دائما للتغير والتجديد وترك ما كان من الماضي والبحث عن المغاير، سواء في المجال الأدبي أو في المجالات الأخرى.

2.2مجالات الحداثة وقضاياها:

لم تقتصر الحداثة على شيء محدد، وإنما شملت مجالات كثيرة وعديدة إضافة إلى الأدب، وهو ما قاله"جون بودريار " ليست الحداثة مفهوما سوسيولوجيا أوسياسيا أو تاريخيا بحصر المعنى، وإنما هي صيغة مميزة للحضارة تعارض صفة التقليد، أي أنها تعارض جميع الثقافات السابقة والتقليدية، فأمام التنوع الجغرافي والرمزي لهذه الثقافات تعرض الحداثة نفسها وكأنها وحدة متجانسة مشعة عالميا." ألان تورين،1997.ص: 272).ويقصد أن الحداثة ليست مفهوما متداولا في حقل معرفي دون غيره ، وإنما تشمل جميع الميادين، حيث

تدعو إلى إلغاء القديم والإتيان بالجديد،كما تعمل على إبراز التطورات التي وصل إليها العقل مجسدة في :"وعي عصر ما يحددّ نفسه بعلاقاته بماضي العصور القديمة، ويفهم ذاته كنتيجة انتقال من القديم إلى الحديث" (يورغن هابرماس،2002.ص:17).

لقد ارتبطت الحداثة بالتطورات والتغيرات الفكرية التي تطرأ على المجتمع والفرد في فترة زمنية، حيث يعمل على التّخلّص من القديم وابتكار شيء جديد فهي :"ذلك النمط من وعي الإنسان المعاصر أهمية اللحاق بحركة الزمن .هذا الوعي الذي غالبا ما ينتهي باليأس لتزايد سرعة هذه الحركة.." (محمد بن عبد العزيز، 2001.ص: 126).

إنّها حركة تطورية مستمرة تتماشى مع الزمن وتصبو إلى اللحاق بأشياء مميزة مختلفة عما سلف، ومنه فالواضح أنه رغم اختلاف النقاد في وضع مفهوم محددا للحداثة إلا أنها: "بمفهوم الغرب تنشد الجديد دائما ...وهو مصطلح يصعب علينا أن نمسك بالمعنى فيه لأنه يتغير ويتبدل ويظهر كلّ مرة بشكل جديد "(سمير سعيد حجازي،200. ص: 315)، وهذا راجع إلى اختلاف الميادين والمجالات التي ارتبطت بها الحداثة.

3.2 مرجعيات الحداثة وأنساقها:

لم يختلف الأمر كثيرا عن النقاد والباحثين العرب فكل منهم عرّفها حسب إيديولوجيته الشّخصية ومرجعياته الفكرية، ومن هذه التعاريف أنها "جدة، إتيان بالشيء الذي لم يؤت بمثله من قبل ويتحرر من إسار المحاكاة والنقل، والاقتباس واجترار القديم، وقد تتمثل الحداثة في الأسلوب أوفي المضمون أو في الاثنين معا، فيكون صاحبها مبدعا وخالقا، مذهبٌ جديدٌ مطبوعٌ بسمته المميزة.."(عبد النور جبور،1979.ص:92)، ليتبيّن أنهّا لا تختلف عن معناها اللغوي، ومن ثمّ فهي عبارة عن شيء جديد وشيء مبتكر مختلف ومميز عن سابقه، ترفض التّقليد، وتبحث عن الجديد على مستوى الشكل والمضمون.

فالحداثة تعني التّخلص من الأفكار القديمة، وهو ما تمثّل في: "مفهومي للحداثة يتلخّص في التجديد في الأفكار والأخيلة بما يتناسب ومستجدات العصر الذي نعيشه والمستقبل المتطور الذي نتطلع إليه"(وليد قصاب، 2005.ص: 113)، و يرى الحداثي أنه يجب التجديد والتغيير في الأفكار، تماشيا مع التغيرات التي تحدث في الحياة، وتعتري العصر، إنها: "صراع بين السكون والثبات وبين التحول والاستمرارية والتغير، كما تعني التنصل والخروج من رغبة الجاهز والتمرد على قيود الماضي والتأسيس لمستقبل لم يأت"(سعيد بن زرقة،2004.ص:147). لذلك فهي نقيض القديم تعمل على التخلص منه والتحول والاستمرار وتغيير ما هو سائد والإتيان بالجديد والتخلص من القيود التي تدفعهم للثبات، بل محاولة بناء رؤيا جديدة، وهي جوهريا رؤيا تساؤل واحتجاج: "..تساؤل حول الممكن واحتجاج على السائد، فلحظة الحداثة هي لحظة التوتر والتصادم بين البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها، فالحداثيون يطمحون لشيء مختلف يمكن أن يحققوه، بدلا من الوقوف على ما هو سائد باعتبارها :"وضعية فكرية لا تنفصل عن ظهور الأفكار والنزاعات التاريخية التطورية وأقدم المناهج التحليلية والتجريبية، وهي تتبلور في اتجاه تعريف جديد للإنسان عبر تحديد جديد لعلاقته بالكون." (خالدة سعيد، 1997.ص: 26)، ليتضح أن الحداثة تتماشى مع ظهور أفكار جديدة بسبب النزاعات والخلافات التاريخية. فهذه الأحداث تغير من الواقع الذي يعيشه الفرد وتؤدي به بالضرورة إلى التغير.

وبالرغم من أن معظم النقاد والأدباء دعوا إلى قطع الصلة بالماضي والعمل على شيء جديد ومخالف لما سبقه، نجد فئة أخرى من النقاد تربط الحداثة بالزمن الماضي والحاضر فهي:"في أصلها لا ترتهن بمجال الزمن الحاضر ضرورة".(عبد السلام المسدي،1986. ص:10) . والواضح هنا أن الحداثة ليست محصورة في زمن واحد وهو الحاضر، وإنما يمكن أن تتعداه إلى الماضي وحتى إلى المستقبل بما أنها تحاول دائماً الإتيان

بالجديد، كما نجد "أدونيس "أيضا رغم أنه من المؤيدين للحداثة إلا أنه لم يقم بفصل الماضي عنها حيث يقول:" إنّ القول عني بأنني أنادي بالانفصال عن الماضي إطلاقا، هو تجاهل أو جهل بالواقع، إن الماضي الذي أدينه هو ماضي السلبيات والجوانب الرجعية، لا الماضي إطلاقاً." (محمد بن عبد العزيز،2001.ص: 120).داعيا إلى التخلص من الشوائب والسلبيات التي كانت سائدة في الماضي وليس عزل الماضي كله:"فرفض الماضي رفضا تاما عبارة متناقصة جوهريا عدا أن ذلك مستحيل " (محمد بن عبد العزيز، 2001 .ص:128)، فمهما ادّعى الحداثيون أنهم قطعوا ورفضوا صلة الماضي بالحداثة، لا يمكن، بل ويستحيل فهمها مهما عملوا وغيروا، ليبقى الماضي له صلة بالحاضر، غير أن الإجماع واضح بأن الحداثة تتعارض مع التقاليد والتراث، تدعو إلى التغيير والتجديد وتجاوز القديم، والبحث عن المجهول فهي:"أيا كان-نوعها عندنا نحن العرب-أو عند الأوروبيين ، أو في أي زمان ومكان، تعني التغير سواء أكان إبداعا أم دراسة نقدية ."(محمد زكي العشماوي،2002.ص: 203).

من الشائع جدّا أنّ أغلب الشعوب العربية تأثرت بشدّة بالمعتقدات الفكرية والفلسفة الغربية وخاصة في مجالها الأدبي والنقدي، والذي أخذوا منه ما يعرف بالحداثة فهي "مفهوم مرتبط أساسا بالحضارة الغربية وسياقاتها التاريخية، وما أفرزته تجاربها في مجالات مختلفة... إن الحديث عن حداثة عربية مشروط تاريخيا بوجود سابق للحداثة الغربية وبامتداد قنوات التواصل بين الثقافتين "(وليد قصاب،2005 .ص:105). لقد انتقلت إلينا نحن العرب بواسطة التواصل بين المنطقتين بمختلف الطرق والوسائل بعد نكسة 1967، ثم أصبحت تيارا قويا عالي الصوت مع صدور مجلة فصول المصرية بداية الثمانينات، فللحروب وقع كبير، بحيث أحدثت صدى واسعا في الحياة الفكرية والاجتماعية، وغيرها من المجالات عند الشعوب العربية، لاسيما تلك التي تقع بلدانها حول البحر الأبيض المتوسط، والتي أفاقت من سباتها الطويل على وقع مدافع"نابليون بونابرت" وهي تدك الثغور المصرية والمشرقية، وهو ما جعل المستعمر ينقل عاداته وأفكاره إلى الدول العربية والتي أثرت في شعوبها من حيث التفكير وحتى العقائد.

بالإضافة إل عوامل أخرى كانت سببا حقيقيا لظهور الحداثة في البلدان العربية مثل الترجمة والتتلمذ، حيث ساهمت بنقل الحداثة إلى عالمنا العربي "فقد برزت مع الحملة الفرنسية على مصر إذ ترجمت أعمال الفرنسيين وبعض كتبهم ودساتيرهم الوضعية...ثم أدخلت اللغات الأجنبية إلى مناهج التعليم. "(محمد بن عبد العزيز،2001.ص: 431).

ومنه فالحداثة نشأت في البلاد العربية بعد الموجة الاستعمارية التي طالت البلاد العربية، وما ترتب عنها من تحولات وملابسات ساهمت جميعها في بناء الحداثة الغربية. ولعلّ من أهم المبادئ الأساسية التي قامت عليها الحداثة أنها " ثورة على كل ما هو قديم وثابت، والنفور من كلّ ما هو سائد من أمور العقيدة والفكر والقيم واللغة والشؤون السياسية والأدبية والفنية، فهي إذا ثورة على الواقع بكل ما فيه من ضوابط "(محمد بن عبد العزيز، 2001.ص:126)..إنها فعالية تعمل على النفور والتحرر والابتعاد عن كلّ ما هو ثابت وسائد على جميع الأصعدة، ومحاولة تغييره والتخلص من مبدأ التقليد الذي ظلّ يخيّم على واقع الحياة الاجتماعية والسياسية.

وقد ذهب "محمد بنيس" إلى ضرورة فصل المبدع بين الشعر والحداثة السياسية، وأن يتجاوز فكرة أنه لا يوجد تحديث شعري بمعزل عن تحديث سياسي أو اجتماعي أو تاريخي، ومن ثمّ وجب أن تكون الحداثة في صيرورة دائمة لا تتوقف أبدا، فالإبداع يجب أن يبدأ من جديد بمجرد الانتهاء من عمل أدبي، يجب أن تكون بداية لنص جديد، وهو ما عبّر عنه بقوله:" لا بداية ولا نهاية للمغامرة، هذه القاعدة الأولى لكلّ نص يؤسس ويواجه لا بداية ولا نهاية، الكتابة نفي لكل سلطة وبهذا المعنى لايبدأ النص لينتهي، ولكنه ينتهي ليبدأ، ومن ثمّ يتجلّى

النّص فعلا خلاقا، دائم البحث عن سؤاله وانفتاحه " (محمد بنيس،1988. ص: 18)، لذلك فالعمل الأدبي يبحث عن الجديد من خلال السؤال والكتابة والإبداع، ومحاولة كتابة نص جديد مغاير، والعمل على نقده، باعتبار أن الممارسة النقدية ركيزة من الركائز الأساسية التي ساهمت في تطور النص الأدبي، وهذا ما يتجلى في قوله:" النقد أساس الإبداع، هذه هي القاعدة الثابتة للكتابة. حين نقول بالنقد، نلغي القناعة .." (محمد بنيس،1988. ص:19)، ومن ثمّ يمكن للنقد أن يغير ويطور العمل الأدبي، من خلال عمليات التفسير والقراءة والتحليل والتقويم واستبطان ملامح الجمال وعناصره، واستجلاء الرداءة، ذلك أن النقد يعمل على تحرير النص من القيود المفروضة عليه، وإبراز كل جديد، يقول:" لا معنى للنقد والتجربة والممارسة، إن لم تكن متّجهة نحو التّحرّر " (محمد بنيس،1988. ص:21)، ومنه فإن الظاهرة الأدبية تقوم على السؤال والبحث وليس على الركود والانتظار، فالتّغير في شيء ما يتحقق بالبحث وتقصّي الجديد، ولكي نتجاوز المألوف ونتخطّاه ينبغي البحث الدائم عن الجديد الذي هو أساس الإبداع.

ينضاف إلى ذلك أنّ الحداثة تقوم على هدم وتدمير كل القيم التقليدية القديمة في مختلف المجالات، ومنها مجال الأدب إذ"دفعت إلى تدمير الأساليب والصور والصيغ اللغوية وابتداع أساليب وصور جديدة تتسع لمعارف العصر التي عجزت عنها اللغة القديمة، فلابدّ إذن من تدميرها والخروج من سجنها وابتداع لغة جديدة، لأنّ القواعد من عمل الإنسان، فهو يستطيع دائما أن يعيد قواعد أخرى.. فالفنّان لا يكون مبدعا إلا إذا تمرّد على كلّ مألوف ومعروف "(عبد العظيم إبراهيم محمد المرطعي،1974.ص:17)، ومن ثمّ فالحداثة تدعو إلى التّخلّي عن الأساليب القديمة، وخلق أساليب جديدة تتماشى مع التطور الحاصل في العصر، لأن الإنسان هو الذي يقوم بوضع القوانين والقواعد في العمل الأدبي ليجعلها دائما تتماشى مع رغبته، مثلما نادت بضرورة " القطيعة مع الماضي والثورة عليه، والخروج على ما سلف، وتدمير ما هو موروث من الأفكار والرؤى والمعتقدات والأساليب "(وليد قصاب،2005 .ص: 154).إنها نمط حضاري يتعارض مع النمط الكلاسيكي التقليدي، ومع الثقافات السابقة، وحتى تتكرّس هذه الحداثة وتصبح قوة مهيمنة " لابدّ من فتح النوافذ والبوابات لرياح الهدم، فالحداثة إبداع، ولا إبداع بدون تكسير الأوتار " (وليد قصاب،2005.ص:184).

3.سياقاتها:

في سياق الحداثة الشعرية، حرص الدّارسون والباحثون على إحداث التغيير والتجديد في الشعر، سواء من حيث الأسلوب أو الشكل. ولعلّ من مظاهر التغيير التي طرأت على القصيدة الشعرية قضية الغموض، فإذا كان الرمزيون يرون أن في غموض الشعر قيمة جمالية وفنية لايرونها في الوضوح، فإن "شارل بودلير" هو الآخر اعتبر الغموض شرطا من شروط الشعر الحداثي، لذلك فالحداثة البودليرية لا تحاول نقل خبر يقين أو حقيقة ثابتة، لأنّ البحث عن الحقائق لم يعد مقصدا من مقاصد الحداثة الشعرية، والحقيقة التي تبحث عنها قصيدة الحداثة هي حقيقة فنية "(سامية راجح،2003.ص: 32)، فلا غرابة إن دعت الحداثة إلى التّمرد والكشف عن العوالم المجهولة الخفية، وليست الحداثة كما يتوهم كثيرون أنها وليدة يوم وليلة، ولكنها ثمرة صراع دام لسنوات طوال حتى العصر الحديث، فقد شهدت الساحة الأدبية والشعرية العربية صراعا امتد لعصور حول المفاهيم القديمة والحديثة، وهو ما تولّد عنه ما يسمى بالحداثة الشعرية، الأمر الذي أدّى في نهاية المطاف إلى أن " اتجه الشعراء المحدثون إلى ابتداع أساليب جديدة وإلى أشكال موسيقية جديدة تختلف عن نظام البحر الشعري الذي نظم عليه الشعراء التراثيون، فالحداثة في الشعر تعد تمردا جارفا على التراث.إنها ذلك الوعي الجديد بمتغيرات الحياة والمستجدات الحضارية والانسلاخ من أغلال الماضي والانعتاق من هيمنة الأسلاف، ليست ظاهرة مقصورة على فئة أو طائفة أو جنس بعينه، بل هي استجابة حضارية للقفز على الثوابت " (سامية راجح،2003.ص:7). ولعلّ التغير في شكل القصيدة كفيل بأن يعطي القصيدة سمة الحداثة

والخروج من الشكل القديم إلى شكل مخالف، ومعايير تتماشى مع التطورات الحاصلة في الساحة الأدبية والشعرية، " فلاشك أن ثمة تجديدا على مستوى الشكل يسمح بالخروج من عباءة القديم، وقد يشتق النمط المستحدث مع إيقاع العصر"(عبد الله التطاوي، 2007. ص:132).

إن الأديب أو الشاعر يبحث دائما عن كتابة نص يتماشى مع الفترة السائدة تماشيا مع نظرته للأشياء، باعتبار أنّ "كلّ نص يبحث عن أسلوبه في مرحلة من المراحل التّاريخية هو نتيجة تبدّلات في علائق الإنسان بالموجودات "(محمد بنيس،1988. ص:30) والعملية الإبداعية في تحرّرها يجب أن تهتم بالذّات بما يتولّد عنها من إحساس ورؤيا إبداعية نابعة من الذّات تُساهم في الكتابة الأدبية المتفردة، وهو ما أشار إليه بقوله:" لا يمكن أن نحرر الفعل والتخييل في ظل قمع الذات "(محمد بنيس،1988. ص: 32)، لذلك فإن التمسك بالقديم هو حاجز يقف في وجه الإبداع والاكتشاف، يقول:" لقد عانيت، كما عانى أصدقائي من هذا الفضاء المغلق الذي يرغمنا في كل لحظة على الرؤية إلى الكتابة الشعرية كممارسة مجنونة لا تفضي في النهاية إلا لاحتباس الصوت "(محمد بنيس، حداثة السؤال. ص: 75)، ويبرز " جبران خليل جبران" كنموذج للشعراء العرب الذين أضافوا للشعر العربي الحديث الكثير من التغيرات في الكتابة الشعرية، بحكم أن" جبران جعل من الشعر فعلا شموليا يلغي الحدود بين الشعر والنثر، بين الشعر والسرد، بين الخيال والفكر، بين الغنائي والملحمي، باختصار أعطى للشعر حقّ عبور الأجناس الأدبية، باحثا عن ذلك الذي يجعل من الشعر لغة الاستثناء"(محمد بنيس،1988.ص:65)، فجبران جعل الكتابة الشعرية لا تقف عند نوع معين، وإنما جعلها تشمل أنواعا عديدة منها: توظيف الشعر نثرا أو مزجهما معا أو مزج الشعر والسرد، وهو ما يجعل عدة أجناس متداخلة في نص واحد، أو توظيف الحقيقة مع الخيال ومزجهما في عمل أدبي ما يعطي له نوعا مميزا ومخالفا لما كان سائدا، يقول " بنيس" :" فالسّياب وأدونيس أو يوسف الخال أو خليل حاوي أو صلاح عبد الصبور أو البياتي أو محمود درويش أو سعدي يوسف حتى نقتصر على أسماء تبدو لنا ممثلة لابتداء اللحظة وامتدادها، يشكلون جميعُهم ممارسات تتناغم في غزو استثنائي، وكل ممارسة تسافر إلى حيث عتمة الكتابة فردية "(محمد بنيس،1988.ص: 76)، ولا يخفى على القارئ أن العرب تأثروا بالحداثة الغربية حيث اقتفوا أثرهم والنسج على منوالهم، وهو ما أشار إليه بقوله: " وتظل الثورة الشعرية في أوربا والكنوز الشعرية العربية القديمة، مبعثا لظهور تجربة في الكتابة الشعرية العربية الحديثة، لم يكن هذا سهلا، فالعلاقة بالشعر الأوربي، منذ "إدجار ألان بو" و"بودلير"، أفضت أحيانا إلى تقديس النموذج الغربي وتقديمه كمعيار لإعادة تصنيف السلالات الشعرية العربية القديمة، فضلا عما اندفعت فيه نصوص، إن لم نقل ممارسات، من صوغ النص في ضوء حقيقة النص الأوربي "(محمد بنيس،1988.ص:76). هذا وقد أعطى "محمد بنيس" أهمية إلى ما يعرف بهجرة النصوص التي أرجعها إلى فاعلية النص والتي تكون بالقراءة، لأن النص حين يفقد قارئه يتعرض للإلغاء مما يؤدي إلى إهماله ونسيانه، وحتى يكون فاعلا ينبغي له أن يهاجر، ومن ثم أعطى "بنيس "بعض السّمات التي تتوفر في النّص لكي يقوى على الهجرة، منها: قدرة النص على الإجابة على سؤال معرفي أو مجالات معرفية، مؤطرة زمانا ومكانا، وقدرته كذلك على الإجابة عن سؤال تاريخي أو حضاري" (محمد بنيس،1988. ص: 97-98).

4 . الحداثة من تحرير العقل إلى تبرير الفعل

إنّ الحداثة ظاهرة حضارية واجتماعية ترتبط بما هو كائن في المجتمع من قضايا ومشاكل مختلفة، وما يعاني منه الناس في حياتهم ويومياتهم، وما يعرض لهم من تجارب ومواقف، غير أنها تنحو منحى لا ينفصل عن التجديد والتحديث والدينامية "ومواكبة عمليات العلمنة والعقلانية والفردية والتمايز الثقافي، ومرافقة التصنيع وانتشار العمران .."(أحمد حسان، 1994.ص: 10)، وتغدو تغييرا يصيب أنماط السلوك والقيم

والعادات، فتتغير العائلات والعلاقات وأشكال المعاملات، ويتولد عن ذلك كله تفكك وتحلل على مستوى الأواصر والعلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية، إنها "مذهب أدبي بل نظرية فكرية لا تستهدف الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التمرد على الواقع بكل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية "(محمد برادة،1984.ص:10)، لذلك فالحداثة ليست مقصورة على الإبداع في الفن والأدب فحسب، ولكنها تشمل التمرد والثورة على كل الأشكال والأساليب القديمة في كل مناحي التفكير والتعبير والحياة بوجه عام، بل إن مصطلح" الحديث في حقل الأدب مرن جدا، ذلك أن ظاهرة القدم والحداثة مربوطة بالزمن، والزمن في حركة مستمرة دائمة إلى الأمام، ولذلك فإن ما يكون حديثا اليوم يصبح قديما غدا، وما هو قديم اليوم قد كان بالأمس حديثا، وهذه يقرها العقل " (محمد بنيس،2001 . ص:169).

إن الحداثة في الأدب في نظر " محمد بنيس" مقرونة بالزمن، وهي فعالية مستمرة، وحركة دائمة ودائبة، تحمل في ثناياها وطياتها تغييرات واختلافات مع مرور الوقت، ومن ثم فقضية القديم والحديث قضية دائمة مستمرة لا تنقطع ولا تتوقف إلا بانقطاع الزمن وتوقفه، غير أن " عامل الزمن لا يكفي بأن يرشح النص الأدبي للحداثة، مما يستوجب البحث عن عوامل أخرى يمكن أن تتحقق بها هذه الخاصة للنص، إلى جانب عامل الزمن. ولعل من ذلك أن تكون سمة الحداثة ظاهرة ملحوظة واضحة للعيان في روح النص ومقصده وصورته"(محمد بن سمينة،2003. ص:78-79).

ينضاف إلى ذلك القدرة التعبيرية والإبداعية في العمل الأدبي بما يتماشى ومقتضيات العصر وقضاياه ومشاكله، ورغم دعوة الحداثيين لكتابة نصوص إبداعية تواكب الفترة السائدة، إلا أن" محمد بنيس" تهجم على الشعراء المغاربة وألقى باللائمة عليهم، لربطهم وضع العملية الإبداعية بالأوضاع السياسية، والتخلي عن الذات، من خلال قوله:" من قبل جاء الرومانسيون بمبدأ الذات في الإبداع، فكان لها النسف والفجع، تمجد كبرياءها وتنهار مع أي وشوشة تطالها، ومع كل قصورها الذي ظهرت عليه في العالم العربي، تبعا لتخلف البنيات الطبقية ورخاوة الصراع .. واعتبرنا كل رومانسية نكوصا وارتدادا. ما أبشع جهلنا. إن ثورة الذات الرومانسية أنتجت إحدى أهم الثورات الأدبية في تاريخ الإنسانية." (محمد بنيس، حداثة السؤال. ص:31). وحين نادت بالذات واجهت رفضا من قبل الأدباء والنقاد وحملوا عليها حملة شعواء لا هوادة فيها، رغم أنها كانت من أهم الأسس التي قامت عليها عملية التحرر من القيود المفروضة عليهم، بوصفها مذهبا فرض المتعة الأدبية، ورفض كل ما من شأنه أن يقيد حريته، وهو ما ذهب إليه " بنيس" بقوله:" لا يمكن أن نحرر الفعل والتخييل في ظل قمع الذات" (محمد بنيس، 1988.ص:32)، ومن ثم فإن الظروف والتحولات والأوضاع المختلفة لها تأثير في الكتابة الإبداعية، باعتبارها عوامل ضاغطة تدفع نحو التجديد والتغيير والابتكار، وقد دعا الأدباء إلى ضرورة البحث عن الجديد والمختلف والمتميز، والتخلص من الأدب التقليدي الذي يخلو من القيمة اللغوية والتركيبية والجمالية والفنية.

لقد دعا " محمد بنيس" إلى تبني الحداثة في شتى المجالات، بوصفها آلية تقودنا إلى التغيير والتحرر، بقوله: ".. طوبى لكل من يعتنق التساؤل والقلق، وطوبى لكل من أعلن العصيان ومارس الخروج على القناعة الهشة "(محمد بنيس، 1988.ص: 136)، ذلك أن الخروج على القناعة الهشة هي دعوى إلى اعتناق الحداثة بغرض الوصول إلى قناعة صحيحة، في حين أن التساؤل والقلق هما نتاج للرغبة في تغيير وضع أو واقع، وهما يقودان إلى التجديد والتغيير. وذهب "محمد بنيس" إلى أن الحداثة قد مسّت العديد من المجالات، منها اللغة والأدب والذوق والوعي في جميع أنحاء البلاد العربية، وجعلت من الهامش العنصر الفعال، بفضل جيل من المبدعين والأدباء، مثل"رفاعة الطهطاوي" طه حسين"، "جبران خليل جبران"، " أبو القاسم الشابي"، "نجيب محفوظ"، "سهيل إدريس، و"أدونيس".

5 خاتمة:

إنّ القراءة التي قدّمها "محمد بنيس" من خلال كتابه" سؤال الحداثة" هي بمثابة مشروع نقدي، بل هي محاولة جادة ورائدة لإرساء دعائم حداثة عربية تنطلق من نقد الذات العربية نقدا موضوعيا بغية توجيه الحاضر، وإعادة بناء معالم نهضة حداثية، بمنأى عن حالات الانبهار والذهول أمام الحداثة الغربية، وبمعزل عن تبني الفكر والنظريات والمناهج الجاهزة الوافدة دونما وعي أو فهم أو إضافة، وإسقاطها على حياتنا الثقافية والاجتماعية، ومن ثم فإن الحداثة هي حيرة نابعة من القلق الفكري الذي يبحث عن أسلوب وآليات واستراتيجية فعّالة للتكيّف مع المستجدات، والتماس المناهج الكفيلة والقادرة على مجاراة روح العصر، والتحرر من أشكال التقليد والحياة النمطية، وفي هذا السياق لم يكن " محمد بنيس" من القائلين بانقطاع وانفصال المشروع الحداثي عن التراث، بل نراه يؤكد على حقيقة مؤداها أن المشروع الحداثي ينبغي ربطه بالحاضر، من خلال تجديد أنساقه وقنواته ومفاهيمه وأساليبه ومناهجه وجهازه النقدي، بل كان من الداعين إلى تجديد مناهج النقد العربي، كما أسهم في بلورة نظرية نقدية عربية تضطلع بقراءة الأدب العربي قديمه وحديثه، قراءة خلاقة معمقة يحاور فيها القارىء / الناقد النصوص ويستكنهها ، والمشاركة في إنتاج دلالتها، بعيدا عن الأحكام الجاهزة، وفي ظل بحثه عن مخرج للأزمة التي عانى منها الأدب العربي، نادى "محمد بنيس" بضرورة إعادة قراءة الشعر العربي قراءة مستقلة بمنأى عن أية سلطة منهجية، إلا منهج القراءة نفسه الذي يعتمد على التأويل، لأن الخطاب النقدي خطاب تصوري، هدفه الإضاءة والإنارة والكشف، بخلاف الخطاب الشعري الذي هو خطاب جمالي، وهو لذلك يلحّ على ضرورة مقاربة النصوص الإبداعية برؤية حداثية تتجاوز الترديد وكل جاهز ومتشابه ومكرور من التجارب، وقراءته قراءة فاعلة تجعل من القارىء منتجا لا مستهلكا، ومن ثم فإن الحداثة التي يحتاجها الأدب العربي ينبغي أن تتولد من داخله، ولا سبيل إلى فرض الحداثة الغربية على الثقافة العربية.

المصادر والمراجع:

1- بنيس، محمد. (1988) **حداثة السؤال.** المغرب: المركز الثقافي العربي.

2-رولان، بارت. (1993). **درس السيميولوجيا**. المغرب: دار توبقال.

3-دويلي، مصطفى. (1997). **نقد الحداثة.** مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

4-جورج، ثامر. (2002).**الحداثة وخطابها**. لبنان: دار الشهاب للنشر.

5-بن عبد العزيز، محمد. (2001). **الحداثة في العالم العربي**. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود.

6-حجازي، سمير سعيد. (2005). **النقد العربي وأوهام الحداثة**. مصر: طيبة للنشر والتوزيع.

7-جبور، عبد النور. (1979). **المعجم الأدبي.** لبنان: دار العلم للملايين.

8-قصاب، وليد. (2005). **خطاب الحداثة في الأدب الأصول والمرجعية.** لبنان: دار الفكر.

9-بن زرقة، سعيد. (2004). **الحداثة في الشعر العربي أدونيس أنموذجا.** لبنان: أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع.

10-سعيد، خالدة. (2003). **الملامح الفكرية للحداثة.** لبنان: دار الفكر.

11-المسدي، عبد السلام. (1996). **النقد والحداثة.** تونس: دار العهد الجديدة.
12-العشماوي، محمد زكي. (2002). **أعلام الأدب العربي واتجاهاتهم الفنية.** مصر: دار المعرفة الجامعية.
13-المرطعي، عبد العظيم. (1974). **الحداثة سرطان العصر**. مصر: مكتبة وهبة.
14-راجح، سامية. (2003). **تجليات الحداثة الشعرية في ديوان البرزخ والسكين لعبد الله حمادي.** الجزائر: الجزائر.
15-التطاوي، عبدالله. (2007). تقاطعات **الحركة الشعرية بين الموروث والفردي**. لبنان مصر: الدار المصرية اللبنانية.
16-حسان، أحمد. (1994). **مدخل إلى ما بعد الحداثة**. الجزائر: وزارة الثقافة.
17-برادة، محمد. (1984). **اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة**. مصر: الهيئة العامة المصرية للكتاب.
18-بنيس، محمد. (2001). **الشعر العربي بنياته وإبدالاته**. المغرب: دار توبقال.
19-بن سمينة، محمد. (2003). **في الأدب الجزائري الحديث**. الجزائر: الجزائر.